ونتيجة لذلك أقول ، إن النص النقدي عند الدكتور حسام الخطيب هو نص مواز للنص المنقود ، لا يتحد أو يتفاعل معه أبداً ، بل ينقضه بشكل متواصل ، وعلى أساس تركيبي يحاول اثبات ما هو ذاتاني لدى الناقد ، وكأنه الحكم الأول والأخير .

الناحية الداخلية

سبق أن قلت ـ للاختصار وبعد التشكيك العلمي الذي زرعته في الدراسة المعنية ـ إنني سأقصر ردي ، فيما يخص الناحية الداخلية لنقد الدكتور حسام الخطيب ، على المستوى الاستنتاجي لديه ، وذلك في ثلاث نقاط تالية :

أولاً : يستنتج الدكتور أن « الطريق اذن ما يزال طويلاً محفوفاً بالمخاطر ، ومسلسل التضحيات لا بد له من أن يستمر ، ولكن تباشير الأمل موجودة دون أن يكون هناك شيء مؤكد أو غاية محددة . هناك أمل عريض غامض بالخلاص ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، ولكن ما هو الخلاص ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ والى أية غاية ؟ هذه الأسئلة تتركها الرواية معلقة في الفراغ » .

وفي السطور اللاحقة مباشرة ، وبناء على منهجه النقضي ، ينقض بشكل ميكانيكي استنتاجه الأساسي السابق باستنتاج ثانوي عندما يقول : « وبالطبع ، ليس في هذه الملاحظة أي ايحاء بالنيل من الرواية ، انها مجرد تقدير واقع ، فالرواية سيدة نفسها ، تقول ما تشاء ... (الخ) ومن حق الرو ية ألا تلزم نفسها بأية رؤية محددة » .

وأنا أتساءل ، بالطبع : كيف يمكن أن يكون من حق الرواية ألا تلزم نفسها بأية رؤية محددة ؟ وما المقصود من « رؤية محددة » في هذا السياق ؟ هل هي تصور العالم من طرف الكاتب أم « النهاية » التي من المفترض أن تصل اليها الرواية ؟

ثم ، وفي السطر نفسه ، ينقض الدكتور الخطيب « حق » الرواية السابق « بحق » لاحق : « ولكن من حقها أيضاً أن تفعل ذلك حين تستند الى تحليل ايديولوجي متماسك أو موقف ثوري صلب » .

وما يفهم من هذا ، أن الدكتور الناقد ينفي استناد الرواية الى تحليل ايديولوجي متماسك وموقف ثوري صلب ، ولكنه يعود بعجلة الى نقض الاستنتاج اللامباشر السابق عندما يـؤكد ان « النقيض » المكتوبة سنة ١٩٧٢ قد اتكأت على « مفهومات الثورة الفلسطينية وتجربتها [وهذا ما] يؤلف الأساس لأحد جناحي الفكر النضالي الذي استندت اليه ، أما الجناح الثاني الذي يعادل الأول أهمية ان لم يفقه فهو الايديولوجية الطبقية » .

وعدا عن مطالبتي الشرعية بتفسير هذا المصطلح العجيب المميز بـ « الايديولوجية الطبقية » ، لا حاجة بي الى الرد على الاستنتاج الاساسي حول « الأمل العريض والغامض بالخلاص » الذي تتركه نهاية الرواية ، وقد قام به الدكتور حسام وبطريقته النقدية المنتقدة من طرفي خير قيام ، على اعتبار أن الأمل بالخلاص العريض واللاغامض ـ اذ لا أجد في حمل البندقية غموضاً ـ حلقة من حلقات أخرى ستتبع في فكر وزمن وواقع (سماها الدكتور الخطيب بمفهومات وتجربة) القضية الفلسطينية .

ثـانيـاً: يستنتج الدكتور حسام الخطيب أن نصيب الطرف الصهيوني من عقدة المعاناة ـ مثلما ظن في الرواية ـ كان أكثر بروزاً من نصيب الطرف الفلسطيني . ويضيف أنه « من الصعب أن يجزم القارىء بأن مؤلف الرواية قصد قصداً الى معالجة هذه الناحية النوعية ، ولكن يظل حق القارىء ان يتوصل الى هذا الاستنتاج » .

وهنا لا بد لي من قول إن ما بدا أكثر بروزاً لمعاناة اليهودي عبر المراحل التي حولته الصهيونية فيها الى صهيوني ، وليس الصهيوني في وضعه الأخير ، تأخذ مداها التهويلي من هذا الهدف **المقصود** (تحويل اليهودي الى صهيوني) الذي أردت ابرازه . ولن يعجز القارىء ـ لي الحق في الدفاع عنه ـ عن تمييز هذا من ناحيتين : **الأولى شكلية** ، وقد جعلت فقرات التداعي النفسي لدى اليهودي المصهين تأتي على شكل مخاطبة فوقية ومباشـرة من طرف دعـاة الصهيونية « مستعملين صيغة الأمر ، وطبيعياً أن تبرز هذه الصيغة المباشرة والفوقية والآمرة على صيغة المناجاة الهامسة بين الفلسطيني وأمه . **والثانية مضمونية** ، وقد تعمدت أن أبرز ، وفي الوقت نفسه ، أن أرد بشكل غير مبـاشر عـلى الادعاءات الصهيونية المهولـة (بشد الـواو) ، وبسبب هذا التهويـل ـ من بين أسبـاب أخرى بالطبع ـ استطاعت أن تأخذ مداها في نفس اليهودي وفي الواقع العملي .

ان ما يصفه الدكتور حسام بعقدة المعاناة فيما يخص الصهيوني هي أكثر بروزاً من هذه الناحية